قصيدة «إرادة الحياة»
لأبي القاسم الشابي

حمّادي المسعودي

قصيدة «إرادة الحياة» من أشهر قصائد ديوان «أغاني الحياة» للشاعر أبي القاسم الشابي (1909–1934). وهو من أشهر أدباء تونس، يُنزّل شعره في المدرسة الأدبية الرومنطيقية لم يكن يعرف إلاّ اللغة العربية، غير أنّه أغنى تكوينه المعرفي ووسّع أفقه الأدبي بما اطّلع عليه من كتابات عالمية كتبت باللسان العربي أو هي تُرْجِمَتْ.

صاغ الشابي «إرادة الحياة» على بحر المتقارب قبل وفاته بسنة وأيام قليلة[1] وبعد الاحتلال الفرنسي للبلاد التونسية بـ54 سنة تقريبا[2]. وهذه المعطيات التاريخية من شأنها أن توحي لنا بدرجة نضج التجربة الشعرية لدى الشابّي من ناحية وبمدى وعي الإنسان التونسي بالقيود التي تكبّله بسبب الاستعمار الجاثم بكلكله على البلاد من ناحية ثانية وبالسعي الذي تبذله الشعوب المستعمرة من أجل كسر القيود والانعتاق من ناحية ثالثة.

ولم يكن هذا الوضع المتردّي خاصّا بالشعب التونسي في النصف الأول من القرن العشرين، بل كان الكثير من شعوب العالم يعاني نير الاستعمار استعبادا واستغلالا وتمييزا مقيتا، لكنّها كانت تطمح إلى الحرية والاستقلال، وتناضل من أجل تحقيقهما على واجهتين رئيسيتين على الأقلّ: المقاومة المسلّحة والفكر. ومن يقرأ قصيدة «إرادة الحياة» بإمكانه أن يكشف عن معاني الطموح وطلب الحرية والثورة على الأوضاع المتردّية التي كان يعيشها الإنسان في الكثير من بلدان العالم.

لكن مطلب تغيير الأوضاع المتردّية والسير بالإنسان نحو الترقّي واكتساب الكرامة لم يكن موكولاً إلى الشعوب بل كان منوطا بالحكام وأولي الأمر في البلدان العربية والإسلامية، أمّا دور الشعوب فكان مُهمّشا ولا يُقرأ له أيّ حساب. بيد

---

(1) نظم الشابي القصيدة في 16 سبتمبر 1933، وتوفي في 9 أكتوبر سنة 1934. انظر ديوان «أغاني الحياة»، الدار التونسية للنشر 1966.

(2) انتصبت الحماية الفرنسية بتونس سنة 1881.

أنّ أولئك الحكام وأولي الأمر كثيرًا ما كانوا يُسهمون في تردّي الأوضاع واشتداد الأزمة بما أنهم كانوا يأتمرون بأوامر «الظالم المستبدّ» و«قوى الظلام» في البلاد حفاظا على مصالحهم الخاصّة والمراتب التي وُهِبُوها. إنّ صنع التاريخ وتغيير أوضاع البشر والترقي بالمنزلة البشرية يظلّ – في هذه الرؤية – من صنع الأفراد مُلوكًا وحُكّاما ودُولاً عظمى لدى شقّ من الناس، وهو من فعل القدر.

وجاء قصيد «إرادة الحياة» ليقلّب هذه الرؤية عاليها سافلها، وتنقض أطروحة جميع القائلين بها وتُحدث ثورة عاصفة على الفكر السائد في عصره وعلى «قوى الظلام» المعشّشة في البُنى الاجتماعية المختلفة، فيغدو الشعب كلّ شيء بعد ما كان لا شيء، أو هو «قطيع ضائع» بين «الشاعر الفيلسوف» و«العالم النّحرير»[3].

وإذا بالشعوب هي الفاعلة في التاريخ والمغيّرة لمجراه والمتحكّمة في ما تؤول إليه الأمور. فلم يعُد التاريخ من صنع الأفراد حتى وإن كانوا من العباقرة، بل صار نتاج ما تنهض به الجماعة والشعب «المريد للحياة».

لقد تبيّن لأبي القاسم الشابي في قصيدة «إرادة الحياة» أنّ قوام الحياة الحقّ وأسّها الصّلب ورُوحها الحيّة يكمُن في الإرادة، فمن لا إرادة له لا حياة له أو هو في عداد الأموات ومتى غابت الإرادة انعدمت الحياة وانتفى الوجود وصار عَدَمًا.

لكن ماذا يُقصد بالإرادة؟ وما هي القوى الكامنة فيها؟

جاء في «لسان العرب» لابن منظور أن «الإرادة» هي «المشيئة» وأنّ «أراد الشيء» يعني شاءه[4]، فتكون الإرادة بذلك هي المشيئة.لكنّ «المشيئة» ارتبطت في «لسان العرب» بالله، يذكر ابن منظور: المشيئة: الإرادة...المشيئة: مصدر شاء يشاء مشيئة، وقالوا: كلّ شيء بمشيئة الله، بكسر الشين مثل شيعة أي بمشيئته. ويُروى في الحديث النبوي أنّ يهوديّا أتى النبيّ وقال: إنكم تَنْذِرون وتُشركون؛ تقولون: ما شاء الله وشئتُ، فأمرهم النبيّ أن يقولوا: ما شاء الله: ثم شئتُ، المشيئة: الإرادة... وإنما فَرَقَ بين قوله: ما شاء الله وشئتُ، لأن الواو تُفيد الجمع دون الترتيب، وثمّ تجْمَع وتُرتّبُ، فمع الواو يكون قد جَمَعَ بين الله وبينه في المشيئة، ومع ثمّ يكون قد قدّم

(3) انظر قصيد «الدنيا الميتة» الديوان ص 275.

(4) انظر لسان العرب، مادة: رَوَدَ.

مشيئة الله على مشيئته[5]. ثم إن المتصفّح للقرآن بإمكانه أن يتبيّن أن المشيئة مقترنة في الغالب بالإله وأنّ مشيئة الإنسان تابعة دائما لمشيئة الله خاضعة لها ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ...﴾[6]...

كانت الشعوب العربية في الثلث الأوّل من القرن العشرين تعيش حياة الاستعمار والجهل والاستكانة والتخلّف على جميع المستويات، وكان «العلم» الذي يُنشر تقليدياً يبثّ روح التواكل والإيمان بقضاء الله وقدره في كلّ ما يُصيب الإنسان. وكانت «قوى الظلام» تسعى إلى نشر هذا «العلم» من أجل المزيد من التحكّم في الناس. وكان الشابي – ومعه ثلة من المثقفين – واعيًا لهذا الوضع المتردّي لكنّه كان يرى أن هذه الحالة ليست أبدية، بل هي ظرفية، وتغييرها مشروط بإرادة الشعوب، لأن في الشعب تكمن قوّة جبّارة لا تُقهر، وهذه القوّة لئن خبَتْ سرعان ما تشتعل كالنار الكامنة تحت الرّماد، ويكفي أن تهبّ ريح تذر الرماد، فتشتعل النار فتأتي على الأخضر واليابس[7].

إنّ الشعب «إذا أراد الحياة» – وإرادة الحياة حقّ مقدّس وطبيعي – استطاع أن يَصْنَع المعجزات فيَقْهَر القدر، بل إنّ القدر ينتفي أو هو يصير تابعاً لإرادة الحياة لدى الإنسان، إذ لا إرادة إلا إرادة الشعوب، ولا قضاء إلاّ قضاء البشر، ومتى توفّرت هذه الإرادة عُطِّل فعلُ القدر وانجلى الليل، وهو رمز جميع ضروب الجهل والتخلّف؛ وانكسرت القيود التي كانت تكبّل حياة الإنسان بما في ذلك قيد الاستعمار، وبذلك يحيا الإنسان حياته الطبيعية الحقّ الخالية من كلّ قيد[8]. وقد عبّر الشابي عن جميع هذه المعاني الإنسانية النبيلة في البيتين الأوّليْن من قصيدة «إرادة الحياة» واللّذين صارا يُتغنّى بهما في النشيد الوطني لما يحملانه من معاني الثورة والتمرّد على جميع أنواع القيود وللمنزلة الرفيعة التي تبوّأها الشعب فيهما حتى صار الشاعر يُعرف بهذا القصيد، وبمطلعه خاصّة الذي أضحى عند الكثير

(5) انظر نفسه، مادة: شيأ.

(6) الإنسان 30/ 76، وانظر محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة: شاء.

(7) حذّر الشابي المستعمر من هذه القوّة الكامنة في الشعوب في قصيد «إلى طغاة العالم» فقال:
حذار! فتحت الرماد اللهيب
ومن يبذر الشوك يجنِ الجراح

(8) خُلقت طليقا كطَيف النسيم وحُرّا كنور الضحى في رباه

مـن الشـعوب العربية عنوان الثورة ورمز الانتصار على الظلم والاسـتبداد وعسـف الحكّام.

وقـد رُفع البيـت الأول شـعارًا مكتوبًا في عديـد المظاهرات التـي نهضت بها الشعوب العربية في نهاية سنة 2010 وطوال سنة 2011، ولهجت به حناجر الجماهير الثائـرة في تلـك المظاهرات نشـيدًا مُدوّيًا مُعلنـة بداية عصر الشـعوب ونهاية عصر الحكّام المسـتبدّين الطغاة. ولم يقف الأمر عند إنشـاد المطلع ورفعه شـعارا مكتوبًا في اللافتات، وإنّما صار البيت الأوّل وخاصّة الصدر مصدرا ثريّا لاستلهام شعارات تعبّر عن ضروب من إرادات الشعوب، فنادت الجماهير بالمطالب التالية:

– الشعب يريد إسقاط النظام

– الشعب يريد إسقاط الحكومة

– الشعب يريد إعدام الرئيس...

تعـدّدت مطالـب الإرادة، وتنوّعت طموحـات الناس المحمولة فـي الإرادات، وهي طموحات تدور كلها على الحرية والعدالة والكرامة ونبذ العنف والظلم وعلى التوق إلى حياة أفضل تُحترم فيها إنسانية الإنسان، ويسود فيها القانون.

بيد أنّ ما ينبغي أن يُلاحظ هو أنّه لئن حظي مطلع القصيدة بمثل ذلك الاهتمام وتلـك المنزلة حتّى كأنّ الدهر صار من رُوَاته ومنشـديه[9] فـإن المعاني المحمّلة في البيتين الأوّلين منتشرة في كامل القصيدة، وهي موزّعة في شبكة من الدوّال المبثوثة في كل بيت تقريبا: معانقة شـوق الحياة للإنسان، الطموح، ركوب المخاطر (المُنى، وعـور الشّـعاب، صعـود الجبال)، مماشـاة الزمـان، رفض العيـش الحقيـر والواقع المتردّي، الطموح للحياة ومباركة أهل الطموح ومن يستلذّ ركوب الخطر...

ومـن اللافت للانتباه من القصيد أنّ هذه المعاني المفعمة بإرادة الحياة صارت أغنيـة تُنْشِـدُها وتَنْشُـدُها جميـع الكائنـات: الريـح والأرض والغاب...بـل صـارت ناموس الكون كلّه يُتْلَى في كلّ مكانٍ و«نشيدَ الحياة المقدّس» الذي يتردّد صداه في المعابد:

(9) نتذكّر هنا بيت أبي الطيّب المتنبّي الذي يقول فيه (الطويل)

وما الدهر إلاّ من رواة قصائدي إذا قلتُ شعرا أصبح الدهر منشدا

ورنَّ نشيدُ الحياة المقدَّسُ في هَيْكَلٍ حَالِمٍ قَدْ سُحِر
وأُعْلِنَ في الكون أنَّ الطُّموحَ لَهيبُ الحياة ورُوحُ الظَّفَر
إذا طَمِحت للحياة النفوسُ فلا بُدّ أن يستجيب القدر

وهكذا يَعُودُ بنا البيت الأخير في القصيد إلى البيت الأوّل، وتنغلق إحدى «أغنيات الحياة»[10] على الصوت الذي به انفتحت، فإذا بالقصيد يُردّد من الفاتحة إلى الخاتمة أنَّ القَدَرَ خاضعٌ ضَرورة لإرادة الشعب ولطموح النفوس وأنّ إرادة الحياة وطموح النفوس يمثلان ناموس الكون يتغنّى بهما كلّ كائن حُرّ منعتق من جميع القيود، وأنّ الشعب إذا أراد الحياة يخرّ له الجبابرة صاغرين، وهذا ما حدثَ فعلا وخاصّة في تونس ومصر عندما أطاح الشعب بعرش زين العابدين بن علي وحكم حسني مبارك، ولم يكن أحد يتوقّع وقوع مثل هذا الحدث الجلل بما في ذلك الدول العظمى التي فوجئ ساستها بانهيار النظام بتلك السرعة العجيبة وقد أصاب البَهْتُ الجميع.

لكن ما ينبغي أن نُشير إليه هو أنّ «بيت إرادة الشعب» وما اشتقّ منه من شعارات «الشعب يريد...» صار مُحمّلاً مجموعة من المعاني من أهمّها الانتصار على قوى الاستعمار وتحقيق استقلال البلاد سنة 1956، وما كان ذلك ليتمّ لولا المقاومة الشعبية التي أقضّت مضجع المستعمر وإرادة الشعب الحياة الكريمة في ظلّ وطن حرّ مستقلّ معترف به في المنظومة الدولية. وقد يكون سبب إدماجه في «النشيد الوطني» راجعاً إلى هذه المعاني الإنسانية الكونية المحمولة في فاتحة القصيد. وقد يعود إنشاده في «الثورات العربية» إلى هذه المعاني نفسها وإلى كون هذا البيت الشعري صار رمز الانتصار على الحكّام الطغاة والشعور بالتفاؤل، علاوة على ما يحمله من معانٍ مقترنة بالشعب باعتباره قوّة فاعلة في التاريخ وفي تقرير المصير، ولم يَعُد ذلك الكيانَ المهمّش المستكين الذي «يقنع بالعيش، عيش الحجر»[11]. وقد برهَنَ الشعب التونسي أيام «الثورة» على أنه الفاعل الرّئيس في الأحداث التي انتهت بإسقاط الحاكم. أمّا أولئك الذين تولّوا مقاليد الحكم بعد أن هدأت العاصفة فلم يكونوا مشاركين في

(10) سمّى الشابي ديوانه «أغاني الحياة».
(11) عجز أحد أبيات قصيد «إرادة الحياة».

الأحداث، بل ركبوا صَهْوَتَهَا بعد أن رسا بها الشعب في برّ الأمان، فأكلوا ثمار شجرة لم يغرسوها وخبزًا لم يزرعوا حَبَّه وتفيّؤوا دَوْحَةً لم يسقُوها.

أمّا رحيل شعار «الشعب يريد...» إلى البلدان العربية الأخرى بتلك السرعة العجيبة فيمكن أن يُفسّر باشتراك هذه الدّول في الأوضاع المتردّية والسياسات الفاسدة وتعطيل دور الشعب وإسكات صَوته بالعسف، فوضع هذه الدّول واحد وملكها واحد (و ربّها واحد)، وخراجها لهارون الرشيد حيثما أمطرت... وأموالها مخزّنة في قصور ملوكها أو منزّلة في حساباتهم البنكية خفيّة الاسم لتبذيرها عند الحاجة في القصف والعسف والرقص وإسكات الأصوات الحرّة الداعية إلى الحرية والعدل والحياة الكريمة. ولا نشك في أن وسائل الإعلام وشبكات التواصل الاجتماعي قد أسهمت في انتشار الشعارات المرفوعة في المسيرات الشعبية بما أنّها كانت تنقل الأحداث ساعة وقوعها، ولا نشّك كذلك في أن الشعوب العربية كان بعضها يستعير من البعض الآخر الشعارات، لا سيّما ممّن كان له السّبق في التحرّك وتحقيق النصر.

لقد كان الشعب التونسي حرًّا طليقا أثناء ثورته، فلم يَقُدْهُ زعيم ولا رئيس حزب ولا إمام ولا شيخ، فهؤلاء جميعًا كانوا «متفرّجين» داخل الوطن وخارجه، ولمّا حقَّقَ الشّعب النّصر هرعوا من كلّ صوب وحدبٍ، وسطوا على مستحقّاته وزنوا بآماله وداسوا طموحاته:

إنّ ذا عصرُ ظُلمة غير أنّي من وراء الظّلام شمتُ صَبَاحهْ
ضيّع الدّهرُ مجدَ شعبي ولكنْ ستردّ الحياةُ يوما وشاحَهْ[12]

لكنّ الشعب قد يكون أخطأ سواءَ السبيل عندما وَهَبَ ثمرة نضاله إلى أناس لم يكونوا أَهْلاً لهُ، فعوَضَ أن يتقدّموا بالبلاد أشواطا رجعوا بها القهقرى، فصرنا نُلوك قضايا كُنّا نحسب أنفسنا قد تخطّيناها، ونشاهد مناظر مزرية كُنّا نظنّ أنّنا تخلّصنا منها، ونسمع أصواتًا متناعقة كُنّا نعتقد أنّها توارت... لكن لِنُرَدِّدْ دائما:

إذا الشّعبُ يوما أراد الحياة فلا بُدّ أن يستجيب القدر

(12) أغاني الحياة ص 25.